

عقيدة الخيام

للاستاذ عبد الحق فاضل

تقديم

من خلال رباعياته الفارسية عرفناه نحن العرب في هذا الجيل ، لكنه كان في حياته من اعلام الثقافة العربية ، لأنه كتب مؤلفاته ورسائله العلمية والفلسفية والدينية باللغة العربية، التي كانت لغة العلم والدين والادب في زمانه ، لا في فارس وحدها بل في غيرها من اقطار الامبراطورية الاسلامية . وقد طبع كتابه الجليل (الجبر والمقابلة) بنصّه العربي وترجمته الفرنسية في باريس عام ١٨٥١ - اي ان اللغة العربية هي المرجع لدراسة هذا الاثر وغيره من ثمار عقل الخيام . ولولا أن شهرته برباعياته الفارسية قد غطت على شهرته العلمية وثقافته العربية، لعرفناه واحدا من رجال الفكر العربي كالفارابي وابن سينا والخوارزمي والزمخشري وغيرهم من اخوانه واخواننا غير العرب، الذين نشأوا في احضان الثقافة العربية والحضارة الاسلامية، والذين هجروا لغاتهم الاصلية في التعلم والتعليم، ودونوا ثمار قرائحهم بالعربية التي احبوها وهاموا بها،

الى حد أن ابا الريحان البيروني، مثلاً، كان يقول أن الهجسـو
بالمربية أحب اليه من المدح بغيرها ! .. وما كان هذا شعوره
وحده .

لهذا أرى أن الخيام جدير بأن يحقني به العرب في
المناسبات، ويصدروا الأعداد الخاصة به من المجلات ، شأنهم
مع أمثاله الآنف ذكرهم .

عقيدته

كنت في كتابي « ثورة الخيام » عقدت فصلاً بعنوان (الإلحاد
الرياضي) برهنت فيه على الحاد عمر الخيام ؛ وهنا أعقد فصلاً بعنوان
(الإيمان الرياضي) أبرهن فيه على إيمانه — دون أن أمس ذلك الفصل
الإلحادي بتصحيح أو تنقيح ، لأن عمر الخيام نفسه قد كان كلا الرجلين .
فكيف كان ذلك ؟

البيهقي — جزاه الله خيراً كثيراً عما روى لنا من أخبار الخيام، ولا
سيما أن لمروياته، على قلتها وإيجازها ونقصها، خطورتها في البحث ، لقرب
عهده من مصادرها ، ولأنه يكاد يكون شاهد عيان في بعض ما يعيننا منها
— يقول عن صاحبنا عمر « وحكى لي ختته الامام محمد البغدادي انه كان
يتخلل بخلال من ذهب (1) ، وكان يتأمل الالهيات من (الشفاء) ، فلما
وصل الى فصل (الواحد والكثير) وضع الخلال بين الورقتين وقال : ادع
الازكياء حتى أوصي . فوصى ، فقام وصلى . ولم يأكل ولم يشرب ، فلما
صلى العشاء الأخيرة سجد ؛ وكان يقول في سجوده : اللهم انك تلمس

١ — التخلل : تنظيف ما بين الاسنان من بقايا الطعام . والخلال (زنة الهلال) : ما يتخلل
به من مود أو نحوه .

اني عرفتك على مبلغ امكاني ، فاغفر لي ، فان معرفتي اياك وسيلتسي
البك . ومات « . اه البيهقي (٢) .

قال لي الخيامي التركي المرحوم رضا توفيق (حين لقيته في استانبول
عام ١٩٤٧) انه لا يصدق الحكاية ، لان الخيام كان فقيرا ، وليس معقولا
ان يتخلل بخلال من ذهب . غير اني لا اتفق معه في هذا ؛ اولا لأنني لا ارى
من الضروري تكذيب الحكاية كلها اذا كان جزء منها غير معقول ، وثانيا
لان الاستنتاج بمثل هذا التعميم لا يبيح لنا انكار نص ينقله راوٍ عرف شخص
الخيام (مذ قبله سنة ٥٠٧ هـ - اي قبل وفاة الخيام بعشر سنوات) فلم
ينكر من رواية ختنه عنه انه كان يتخلل بخلال من ذهب . وقد كان هو
اخلق بالشك في صحة ذلك لو قد وجد ما يثير شكاً ، وخاصة انه يروي
الحكاية نقلا عن شاهد عيان يعرفه ايضا ويتق بروايته ، بدليل انه نقلها
دون ان يعلق عليها ، او يناقش روايتها ختن الخيام الذي يظهر انه كان
مساكنا له في دار واحدة . وليس ثمة ما يحمل اي واحد من الاثنان -
الراوي والرووي عنه - على ان يخترع (خلال الذهب) خلافا للواقع .
وليس مستبعدا ان يكون الخيام اغتنى في بعض مراحل عمره ، وهو الذي
كان يخالط الامراء والسلاطين . وقد جاء في بعض اخباره ان الوزير نظام
الملك كان اجري عليه (١٢٠٠) دينار في السنة ، وربما اجري عليه وزير
آخر او سلطان ، ما اغناه ولو في اخريات حياته فقط . كما ان الخيام كان
طبيبا عالي الدرجة، يستدعيه الملك لمعالجة حفيده سنجر حين اصاب

* - ظهر الدين ابو الحسن علي بن زيد البيهقي ، يرجع نسبه الى الصحابي خزيمه الاوسي

الملقب بذي الشهادتين ، نزل ابناءؤه نارس - « نعمة صوان الحكمة » تم تأليفه ما بين

عامي ٥٥٢ و ٥٦٥ هـ . ويلاحظ ان لقب الخلق (البغدادي) ينسب ان زوجة الخيام كانت

مراقبة النسب .

بالجدري في صباه (٣) ، والطب صنعة رائجة رابحة ، وما أحسب بضاعة الخيام هذه كانت بائرة . حتى لو كان فقيرا حقا أيامئذ فليس من المحال أن يكون أحد المعجبين أو الأصدقاء قد أهدى اليه ذلك الخلال الذهب . وليس ببعيد كذلك أن يكون تفسير هذه النقطة أي شيء لا يخطر لنا ببال . فعلى هذا لا استسيغ تكذيب نص مجرد وجود نقطة فيه لا نعرف كيف نفسرها . وما أكثر الألفاظ المستعصية ، وبعضها شديد الغرابة لا نفقه له معنى ، في حيوات رجال التاريخ .

على أن حكايتنا هذه تقول بنفسها أن الخيام كان عند وفاته ميسور الحال ، لأنه حين شعر بدنو ساعة الصفر المحتومة ، دعا بالأزكياء ليوثقوا وصيته ، فحضروا ووصى فعلا . فلو لم يكن ذا مال ذي بال لما كان ثمة ما يستدعي الوصية ، وتوثيقها من جانب الأزكياء ، وهم بمثابة الكتاب العدول في زماننا .

لكني أنا لم أسلم من مثل هذا الخطأ الذي وقع فيه المرجوم رضا توفيق ؛ فقد صدرت الطبعة الأولى والثانية من « ثورة الخيام » وأنا غير عابئ بالحكاية . . أصدق كل ما رواه البيهقي عن الخيام ما عداها ، فكنت اتخطاها كلما وقع نظري عليها . وكان السبب أنها صادرة عن ختن الخيام — أي أخي زوجته أو أبيها — فنقلت لنفسي، إذا كان معاصرنا المرحوم فروغي (٤) يدافع عن صحة إيمان الخيام، المتهم بالأحاد، ذلك الدفاع

٢ — هو أبو الحارث سنجر بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ، تولى الملك ولقب بالسلطان الأعظم .

٤ — محمد علي فروغي ذكاء الملك ، كان أحد جهابذة السياسة والعلم والأدب في إيران ، تولى إثناء الحرب العالمية الثانية . أصدر مجموعة لرباعيات الخيام باسم « رباعيات حكيم خيام نيشابوري » وقدم لها بيحت قِيم على إيجازه، وعلى مخالفتنا لبعض آرائه فيه . طبعت في طهران سنة ١٣٢١ شمسية ، أي ١٩٤٢ م .

الحر ، غير المنطقي ، ويتناول حتى الرباعيات الالحادية الواضحة الكفران ، بالرغم من أكثر من ثماني مئات من السنين تفصل بين المحامي والمتهم ، وبالرغم من عدم وجود اية رابطة شخصية بينهما من صداقة أو مخاتنة — فما بالي بالامام محمد البغدادي، ختن الخيام ؟ كيف اصدق حكايته ضد رواية القفطي الذي قال لنا بكل جلاء عن الخيام ، إن اهل زمانه قدحوا في دينه . . حتى لخشي على دمه وامسك من عنان لسانه وقلبه ؟ . . وضد اتهام الرازي اياه بأنه من الدهريين والطبيعيين الضالين، بالرغم من اكباره له ؟ (٥)

يضاف الى ذلك أن الرواية نفسها لا تخلو مما يثير الشك أو التساؤل على الاقل . فان ما يقال في السجود اثناء الصلاة هو « سبحان ربي الاعلى » . . فلماذا قال الخيام في سجوده غير ذلك ؟ كما ان ما يقال في السجود انما يقال سرًا، اي همسا لا جهرا ، فكيف سمعه الختن ؟ وان شئت مشككا آخر علاوة على هذا، فكيف علم أن الخيام وقف في القراءة عند (فصل الواحد والكثير) من كتاب (الشفاء) وهو من اشهر كتب ابن سينا ؟

من اجل هذا أهملت هذه الحكاية من رواية البيهقي التي صدقتها كلها، لاني لم اجد فيها — عدا هذه الحكاية — ما يدعو الى شك أو تكذيب . وكان ذلك تسرعًا مني .

بعد الطبعة الثانية من « ثورة الخيام » عدت الى القصة انظرها بعين جديدة ، ازلت قبل كل شيء ذلك التناقض بين روايتي القفطي والرازي وغيرهما عن الحاد الخيام، وبين رواية ختنه عن ايمانه ؛ فظهر لي أن عمر الخيام نفسه قد كان كلا الرجلين ؛ ذلك أن الالحاد والايمان لم يلتقيا في فترة واحدة من حياته . فنحن وان كنا على جهل تام بمرحلة الحاد، فاننا نعلم ان

• — ورد تسميل ذلك في « ثورة الخيام » .

ايمانه كان في شيخوخته، وقد اطلعنا عليه في آخر يوم من حياته بالتحديد .
وما اكثر مَنْ أَلْحَدَ من العلماء والمفكرين في عهد الشباب أو الكهولة ثم فاء
الى الايمان في الشيخوخة .

وعلى ضوء هذه الظاهرة نعود الى النقاط الغامضة التي اثارته
شكوكنا لنتحنتها ونحقق النظر فيها . فأما كيف عرف الامام محمد البغدادي
ان صهره الخيام وقف من (الشفاء) عند (فصل الواحد والكثير) فهذه
ابسط المشاكل واسهلها جوابا . عندما فتح الكتاب — ربما بعد ان اسلم
الخيام الروح — حيث كان قد وضع خلال بين الورقتين — وجد هـذا
العنوان في احدى الصفحتين .

واما ما قاله الخيام في سجوده، فالظاهر انه كان خارج صلاة العشاء
الآخرة — الأصولية — التي يقال في سجودها « سبحان ربي الاعلى » .
واكبر ظني ان البيهقي لم يحسن اختيار اللفظ للتعبير عن هذه النقطة ، ولو
ان عبارته تحتل تفسيرنا هذا . فهو يقول : « فلما صلى العشاء الآخرة
سجد .. » اي : فلما فرغ من صلاة العشاء الآخرة سجد . ولا معنى
لعبارته بغير هذا التفسير، لان السجودات في اثناء الصلاة بديهية لا حاجة
الى ذكرها . ولو كان قصده السجود الذي في اثنائها لقال : « فلما صلى
العشاء الآخرة وسجد كان يقول في سجوده .. » او : « فلما سجد في صلاة
العشاء الآخرة .. » . اما خارج الصلاة فما اكثر ما يسجد المسلم لله
شكرا او تضرعا ، او تحية للمسجد ، او استقبالا للاجل .

فلما احس الخيام بدنو ساعته وصّى ، وكان متهيئا نفسيا للقاء
الرفيق الاعلى، فسجد بعد صلاة العشاء تضرعا وانابة . وفي مثل هذه
الحالة من المعقول أن يكون قد جهر بما قاله، ورفع به صوته من فرط التأثر
وحرارة الابتهاال . كما يحتمل ان يكون كرر الدعاء بعد السجود فسمعه

خفته . واية كانت الحالة فقد وردت احاديث نبوية عن اجلة من الصحابة ان الرسول كان يدعو احيانا في سجوده ويقول كذا وكذا ، من مخطـف الادعية(٦) ويظهر ان البيهقي قد دوّن نص دعاء الخيام حين سمعه من الختن ليثبته في كتابه ، كما يفعل امثاله ممن يؤلفون عن المشهورين او يجمعون الاقوال والنصوص .

اما الاحساس بدنوّ الاجل فظاهرة كثير حدوثها ؛ ولعل القارىء قد صادف من معارفه او اقاربه — كما صادفت انا — من احسّوا بقرب تسليم الروح، ولو لم تعتورهم اثناء المرض نوبة او انتكاسة فجائية منذرة ، سوى الهاجس الداخلي .

من الملحوظ ان بعض الرواة — ومنهم رواة الخيام — ميالون الى الاختزال احيانا، فيحذفون كلمات او عبارات يظنونها زائدة او غير ذات جدوى ، غير مقدرين ما لها عند الباحث المحلل المدقق من خطورة ؛ وهي قد تغير المعنى او تقلبه ، او تضعف الرواية على الاقل . من ذلك مثلا رواية الشهرزوري لهذه الحكاية نفسها : فبدلا من ان يقول « روى البيهقي ان ختن الخيام الامام محمد البغدادي حكى له كذا وكذا . . » — قال الشهرزوري عن الخيام : « وحكى (بصيغة المجهول) انه كان يتخلل بخلال من ذهب، وكان يتأمل الالهيات من الشفاء . . » (٧) . . فليتصور القارىء كم كانت تهبط قيمة الحكاية لو لم تصل الينا رواية البيهقي الاصلية، التي منها علمنا ان الراوي ناقل مباشر ، ثقة ، عن شاهد عيان . شيء من هذا

٦ — ابن تيمية : « الكلم الطيب » — تحقيق محمد ناصر الدين الابناني — فيه امثلة من ادمية

السجود النبوية ، ص ٦٠ و٦١ .

٧ — شمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري — « نزهة الارواح وروضة الانراح » — تأليف

٥٨٦ — ٦١١ هـ .

القبيل اقله عن البيهقي نفسه ، فلا بد أن ختن الخيام قد روى له أمورا
اكثر اقناعا واوفى تفاصيل مما اختصره لنا في نصه هذا الذي لم يجد هو فيه
ما يثير تساؤلا أو يتطلب اقناعا أو ايضاحا - لأن الحكاية كما سمعها كانت
مقنعة واضحة . ولعله كان شخصا يعلم عن تدين الخيام وتقواه ما لم
يفكره لنا اكتفاء بزواية الامام محمد البغدادي .

ما سبب الحاد الخيام ؟

انه السبب الرائج للاحاد بخطوطه العريضة في كل مكان ، ولا سيما
لدى العلماء والمفكرين .

لماذا كل هذا الجور في الحياة ؟

لماذا يسعد الاشرار ويثرون ، بينما يشقى الاحرار ويفتقرون ؟

لماذا يخلق الانسان لينمو ، ثم يموت بعد أن يتم ويكتمل وينصبح أجدر
بالحياة ؟

لماذا تموت الصبىة كالوردة في ميعه عمرها قبل ان يأتي دورها ؟

لماذا كل هذا الاضطراب والظلم ، واللامعقول ، في العالم ؟

لماذا .. لماذا .. لماذا ... (وقد ادرجنا نماذج اخرى من تساؤلاته
و (لمذاته) في فصل (الاحاد الرياضي) في « ثورة الخيام ») ..

فالذي يستطيع ان يستنتجه بعضهم من كل هذا انه لو كان للكون
اله لما كان جائرا ، وان كان جائرا فلا يمكن ان يكون الها .

ولا بد ان الخيام كان عارفا بالقالة السفسطائية الاغريقية المشهورة:
« اما ان الله لا يريد الشر ولا يستطيع ان يمنعه ، واما انه يستطيع ولا يريد ،
واما انه يريد ولا يستطيع .. وكل اولئك يعني انه ليس الها . والرابعة

انه لا يريد الشر ويستطيع ان يمنعه ، وهذا أيضا مستحيل ، لانه يقال
عندئذ : ماله لا يفعل اذن ؟

يضاف الى ما تقدم من أفكار تعود الى الجحود والكفران بذات الله ،
ان الالحاد ضرب من التمرد الذي يتسم به عهد الفتوة التي من طبعها التحدي
والنزوع الى التجديد، والخروج على الموروث من معتقدات ومواضع دينية
 واجتماعية وذوقية . . حتى في الازياء . . حتى في الموسيقى والأغاني . . وقد
 رأينا بأعيننا انتشار بدعة اطالة اللحية على عهدنا عند أحداث الجيل ، خلافا
 لجيل آبائهم ، ثم اطالة شعر الراس محاكاة للناث . ولا تسئل عن تملص
 الفن عموما — من رسم عبثي وأدب تشكيلي — من كل القيود، وخاصة من
 القيد الجوهري الأساسي الذي انما خلق الفن والأدب للتعبير عنه ، وهو
 المعنى . وما كل هذا غير طراز من الالحاد الاجتماعي .

بديهي ان فكرة وجود خالق للكون مبدع لكل شيء لم ينتظر الخيام
 حتى يشيخ ليتعلمها، فهي في الواقع أول شيء من الاسلام تعلمه الصبي ،
 عمر ، في دروس علم الكلام (الالهيات) يوم قالوا له : كل متغير حادث ،
 وكل حادث له محدث . والعالم متغير، فهو اذن حادث؛ فلا بد ان يكون له
 محدث، أي صانع أو خالق هو الله سبحانه . فكان يحفظ ذلك صبيا، ويتفهمه
 ويعيده على محتثيه مثلما يحفظ (قفا نيك) ويتفهمها ويعيدها . غير أنه
 حين شب ونما جسمه واضطربت فتوته في مرحلة التمرد والتحدي؛ بدأ يقول
 (لماذا) ؟ ولا بد انه كان يسمع أقاويل الملحدين المنكرين أيضا ، فكان يقارن
 ويوازن . وحين لابس الحياة وأحتك بتفاعلاتها، لعلهُ عانى واقعيا فوضى
 الامور واختلال معايير العدالة، بل فقدانها في الكثير من الأحوال ؛ وربما
 أصابه الكثير من عقابيل ذلك ، ولعله قاسى أيضا من تحيز القدر في معاملة
 الناس شيئا غير قليل — علاوة على لا منطقية الموت ومجهولية المبتدأ

والمنتهى ، لا بد انه حين واجه كل اولئك صار رنين (لماذا) يدوي بقوة في رأسه — استفهاميا حيناً ، واحتجاجياً حيناً ، واستنكاريا حيناً آخر .

ولا بد كذلك ان الخيام قد درس منذ الصبا أيضا اجوبة الدين على أسئلته واعتراضاته ، فقليل له ان (الآخرة) تصحح اغلاط الدنيا . فـ « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ؛ فكما يتسبب الاخيار على صالح أعمالهم وعلى ما يبتلون به من مصائب الحياة ، يعاقب الاشرار على شرورهم، ويحصى ما يتمتعون به في الدنيا من نعم الحياة فيحسب على سيئاتهم . . . والظالم يؤخذ من حسناته يوم القيامة لتضاف الى حسنات المظلوم، فان لم تكن له حسنات أضيف الى سيئاته من سيئات المظلوم . . . « يقضى بينهم بالحق ، وهم لا يظلمون » .

لكن هذا الذي تعلمه في الصغر تبخَّر تأثيره والافتقار به مع الزمن في دورة الشباب . كل الملحدين يعرفون موقف الدين هذا ، لكنهم يزيغون عنه ويذهب بهم الفكر و (اللماذات) مذهب الحيرة فالنكران .

على أن تقدم السن يخفف من فورة التمرد والتحدي أيضا . وكثيرا ما يؤمن الشيوخ بعد كفران . والتأويل الراجح لهذه الظاهرة هو ان المرء حين يستنفذ عمره، وتخبو حدة شهواته، ويقترب منه قبره، يستغفر ربه خوفا من ويلات الآخرة وطمعا في نعيمها، فيتوب عن معاصيه ، وكثيرا ما يعكف على العبادة واداء الفرائض من حج وصوم وصلاة وزكاة ؛ ومنهم من يتصدق بما حشد من مال حرام ، وبعضهم يبني المساجد ، او يوقف املاكه على وجوه البر .

لكني لا اخال هذا منطبقا على مثل شيخنا الخيام ، بل على مثل ابي نواس الذي كان يقول في شبابه :

قم سيدي نعص جبار السماوات

فهو كان يؤمن بأن في السماوات جبارا، لكنه يعصيه تمردا وسفاهة حتى بعد أن حج البيت وقاتل في بعض قريضة ما ينم عن إيمانه . وذلك شأن معظم العصاة من الناس . يؤمنون بالله القاهر فوق عباده، ولا يمنهم إيمانهم من اتيان المعاصي، من غش وابتزاز وعدوان وفسوق، وما الى ذلك من صفات الذنوب وكبائرها . . كالولد الشقي المتمرد، يرتكب كل ما تسول له نفسه ضد أوامر أبيه ومعلميه على الرغم من علمه — يقينا — بما سينال من عقاب وضرب وجيع .

فماذا أدبر الشباب وحلّ المشيب ببعض المارتين عن الدين تابوا .

قال أبو نواس فيما قال :

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فاذا عصارة كل ذاك آثم !

يتوب من آثامه لا من الحاده . انه لم يخرج على الدين عن فلسفة ، ولا هو تاب عن تفكير . لأن التوبة خأمرته فيما يظهر عند اعتلال جسده، ربما بسبب الاسراف على نفسه في الخمر والفجور . ويغلب على ظني انه لو عاوده عنفوان الشباب واقبل الحياة لتاب عن توبته .

الخيام طراز آخر . كان كمره بالدين والحاده بالله عقليا ، أي علميا، لا جهليا أو عصيانيا ؛ فلما عاد الى الايمان عاد عن تفكير وتأمل . فلماذا لم يستغفر في دعائه الأخير عن ذنوبه ومعاصيه ، بل عن عدم تمكنه من معرفة الله .

بعد أن شبع وسئم في مدارج العمر من كثرة تساؤل وطول احتجاج واعتراض ، أخذت (لماذا) تضعف وتتلاشى مع الزمن وبالتدريج . . لتظهر مقابلها في نفس الوقت ، مع الزمن وبالتدريج : (كيف) ؟ . . ولا سيما أن شعلة التمرد والتحدي خمدت مع تدرج خمود الفتوة ونضج الكهولة ،

فأصبحت نظرتة الى الامور وتأملاته في شؤون العالم تتسم بشيء من الحياد .. الايجابي .

إذا كنت تأملات ابي نواس قد قادته الى القول :

وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد

فلا بد ان هذه الحقيقة قد كانت اجلى لعين الخيام، وهو اوسع علما
واعمق فكرا ، واكثر اهتماما بتقصي الحقائق والتفتيش عن الجهولات
واسرار الحياة والكون . لا بد انه تسائل :

(كيف) نبتت هذه الشجرة الوارفة من تلك البذرة الصغيرة ؟ كل
اوراق هذه الدوحة الضخمة وخضرتها وخبثها واللوان نورها ونوع ثمرتها
وطعمها .. كل هذا كان مسجلا بطريقة خفية ودقة غير معقولة في تلك
البذرة الصغيرة .

(كيف) تكونت هذه الحيوانات في ارحام امهاتها ، من لا شيء تقريبا،
من ماء دافق لا يبين فيه اثر لحياة .. ثم اخذ كل منها منذ ولادته يتصرف
على نحو خاص بابناء نوعه دون تعليم ، بالفطرة ؟

(كيف) تكونت هذه الفطرة ؟

والانسان .. (كيف) سطرت كل خصائص شخصيته بالتفصيل
المسهب ، المتقن ، في تلك النطفة الضئيلة ؟ كل البرنامج : الطول والحجم
ولون البشرة وعدد الشعرات في الجسم في كل مرحلة من مراحل الحياة ..
والاحاسيس ، والمشاعر ، والهواجس ، والافكار ؛ وكيف يواجه جسمه
ونفسه وعقله كل انواع الاحتمالات التي تصادفه في الحياة ، وكسل
الاستجابات والتفاعلات وتعاملات البيئة ؟ .. والخيام طبيب ..

وهذا الكون (كيف) تهندس بنجومه الثابتة على مسافات محددة ..

-والخيام فلكي - وبكواكبه السيارة المتحركة بحسابات مضبوطة ؟ ..
-والخيام رياضي - هذا الكون (كيف) نشأ و (كيف) يعمل ؟ (ولو أنه لم
يكن معروفا يومئذ أن الفلك يتحرك كله ويسير) .

وهذه الفصول السنوية (كيف) تتغير وتتعاقب بانتظام، فلا يتقدم
دوران السنة دقيقة واحدة ولا يتأخر ؟ .. والخيام قد شارك في وضع
التقويم السنوي الذي يبدأ في لحظة تعادل الليل والنهار الربيعي .. وهو
فوق ذلك خبير بعلم الأجواء والأنواء ..

بعض هذه الاسئلة يظهر في رباعياته ، لكني لا أشك أنها كلها -
وأكثر منها - قد كانت موضوع اهتمامه وتأملاته .

كيف وكيف وكيف ؟ ...

كل شيء يدعو الى العجب ، بل الدهشة .

وكلما كان العقل أكبر كان تعجبه ودهشته أكبر .

هذا الكون المذهل بكل هذه العظمة وهذه الدقة، من اعظم شيء الى
اصغر ذرة، فيه لا يمكن ان يكون قد تكوّن مصادفة . وهذه الدقة المتناهية
المحكمة الى حد لا يدركه الفكر، يستحيل أن تكون هي التي خلقت نفسها .

قال لي في أذن قلبي الفلك الدوار همسا :

لأرحمت الآن نفسي من هيامي ودواري !

أنا لو كان بأمري دورانني في مداري

أتظن الحكم حكمي في السورى سعدا ونحسا ؟

كلا ، ان الفلك لم يبدع نفسه ، ولا هو يدور باختياره ، ولا بوحي

منه ؛ انه كالنور يدور في الناعورة لا يدري من أجل ماذا .

لسنا نعلم في أية مرحلة من حياته قال هذه الرباعية ، وهي رباعية

خيامية الدلالة، حتى ان لم يكن الخيام قائلها فعلا .

(كيف) اذن نشأ الفلك ، و (كيف) دار ؟

انه بحر وجود جاء من طي الخفاء
درة للبحث لم تُتَقَبْ بعلم او ذكاء
كلهم جاء بقول من تَظَنَّ وهـراء
غير ان الحق لم يظهر عليه ابن فناء

(لا أدريه) صريحة ؟ وهي من الرباعيات (المعتمدة) التي يرجح
ترجيحا قويا صحة نسبتها الى الخيام . وثمة امثال لهذه اللادريية في
رباعيات اخريات . ثم :

يا فتى من صولج التقدير كالأكرة يجري (أ)
برّ شمالا ويمينا ، ثم لا تنطق بأمر
ان من القاك في المحنة من كبرّ ونـر
هو بدري، وهو بدري، وهو بدري، وهو بدري

(لا أدريه) أخرى ، لكن من نوع آخر . فالخيام نفسه ما يزال (لا
بدري) غير أنه قد توصل هنا الى معرفة (هو) الذي وحده بدري .. أي
انه اعترف بوجود (هو) الذي « القاك في المحنة » ..

كان الحادّه رياضيا ، فلا بد أن ايمانه أيضا قد كان رياضيا .. فلا يغلّ
الحديد الا الحديد .

فاذا وضعنا المسألة في صيغتها الرياضية كانت كما اظن هكذا :

٨ - الصولج هو الصولجان (اللسان) . بقصد لعبة الكرة والصولجان ، المشهورة نسبي

عمرنا باسم (الهوكي) .

(لماذا) ، جوابها : لا أدري ، أي صفر . جواب سالب .

(كيف) ، جوابها : هو يدري . جواب موجب ، على كل حال .

وطبيعي أن يتخلى عقل علمي كمعقل الخيام عن السالب من أجل
الموجب ! بعد أن اقتنع عقله باستحالة وجود هذا الكون من دون موجد ،
خالق ، صار إذا عاوده التسأل : لماذا هذه المفارقات في الحياة ؟ لماذا
الشرور ؟ لماذا الحياة ؟ .. لماذا الموت ؟ .. لماذا ، لماذا ؟ ..

كان الجواب : هو يدري ! .. نفس الجواب الذي تعلمه الصبي عمر
ابن ابرهيم الخيام من معلميه وأهله : انها حكمة الله .. قضاء الله ..
ارادة الله .. يُعزَّ من يشاء ويُذلَّ من يشاء ..

ولماذا كانت حكمة الله ومشينته هكذا ؟ .. هو يدري ، هو يدري ..

« لا يُسأل عما يفعل ، وهم يُسألون » .

عندها لا بد أن الخيام عاد الى أجوبة الدين القائمة على تعادلية اليوم
الآخر . وصار يتأمل تلك الأجوبة على (لماذا) بعين جديدة، ويهضمها
عقله بالتدرج — بعد أن كان يحفظها ويعيدها ويتبحر في فلسفتها تحليلا
وتعليلا في محاضراته ورسائله . كان يلقيها دروسا على الناس، ويجهد في
افهامهم اياها بالادلة المتداولة بين العلماء والحكام دون أن يقتنع هو
بها أو يفهمها .. كما يفعل الكثيرون من المعلمين في كل زمان حين يضطرون
الى تلقين تلاميذهم مبادئ دينية أو سياسية لا يؤمنون بها . لكن الخيام بعد
أن آمن بالذي (يدري) صار يلقيها دروسا على نفسه ويجهد في افهامها
اياها بالادلة التي تقنعه هو، وأصبح شعوره بضرورة وجود (الواجب
الوجود) يساعده ويجبر عقله على الاقتناع .

وما في الامر غرابة ؛ فالغزالي الفقيه المتصوف الكبير أيضا تاب الى

الإيمان بعد طول حيرة وتشكك . وللقزالي والخيام نظراء .

سؤال : (كيف) هو الله ؟ ..

أما هذا فلم يجب عليه العقل ولا الدين : الدين يقول : شيء لا
كالاشياء .. بكل شيء محيط .. يدرك الابصار ولا تدركه الابصار ..
والامام علي يقول : « كل ما خطر ببالك فهو ليس كذلك » !

والواقع ان كل تفكير في حقيقة الله وصفاته لا نتيجة له غير الحيرة
والضلالة : وهنا يأتي الحديث النبوي المنقذ : « تفكروا في خلق الله ولا
تفكروا في الله ، فتهلكوا » (٩) .

وينتهي التأمل الرياضي بالخيام ذي العقل الرياضي الكبير الى هذه
النتيجة :

ان عقلي ليس بالكفاء لاثباتك ، ربي
فمناجاتك اضحت هي تفكيري ودأبي
كيف لي ريباه ان اعرف ما كنه صفاتك ؟
ليس من يعرف ما ذاتك حقا غير ذاتك !
وما اشد انسجام رباعيته المنظومة هذه مع دعائه المنثور ذاك .

وان كانت للخيام عمر رباعيات دينية اخرى، فالمعقول ان تكون من
نتاج فترة الرجوع الى الايمان والتدين . ولعل رباعيتنا هذه اهم واحدة

٩ - لقد ذكر الرسول ذلك على اصحابه في مناسبات متعددة فيما يظهر، لان الحديث روي من

جهات مختلفة بصيغ متقاربة ، كلها تؤكد النهي عن التفكير في ذات الله ويحث على التفكير

في مخلوقاته .

فيها .

ولا نعلم متى قالها عمر ، لكن الشهرزوري يروي أنها آخر ما قال

من الشعر .

وأما الرباعية الرائجة التي كثيرا ما يستشهدون بها على إيمان

الخيام :

ان كنت لم ألقب درة طاعتك قط ،

ولم أنفض غبار الذنب عن وجهي قط ،

فلمست باليائس من رواق كرمك ،

لاني لم اقل ان الواحد اثنان قط ..

لها احسبها من صناعة عقل الخيام ، لضعفها ، وخاصة لتهافت

الاستعارة البلاغية في الشطر الاول منها — فمن أسلوب الخيام ان يتقول

أحيانا (ثقبوا د. المعاني) بمعنى افتضوها ونفذوا الى صميمها ، أما

(ثقب درة الطاعة) بمعنى الاتصياح اليها والتمسك بها فاستعارة سقيمة

لا اراها شبيهة بشاعرنا المنطيق عمر .

لا استبعد ان يكون ايمانه هذا الذي ملك عليه مشاعره في شيخوخته،

او منذ كهولته ، قد دعاه الى اتلاف رباعياته الفارسية وشعره العربي،

مما لم يرد به وجه الله او اراد به الالحاد والثورة على الدين ، كما يفعل

امثال له من التائبين — فلم يخلف من جراء ذلك ديوان شعر ولا مجموعة

رباعيات ، الا ما بقي في ذاكرات اصحابه الذين كانوا اخذوها عنه او في

دفاترهم ، او اخذها بعضهم عن بعض ، مما شاع شيء في حياته نقسلا

عنهم، وصارت شذرات منه تظهر بعد وفاته في المؤلفات اللاحقة ، حينما

بعد حين .

ولنعد الآن الى ذلك الدعاء الذي ودع به الفاتية . سيفته لا تخلو
من غرابة ، وهي تناسب الخيام كما نعرفه كل المناسبة . ونص الدعاء
كالذي رأينا هو : « اللهم انك تعلم اني عرفتك على مبلغ امكاني ، فاغفر
لي . فان معرفتي اياك وسيلتي اليك » .

فاذا كانت معرفته الباريء هي وسيلته اليه فلماذا يستغفره ؟ السر
فيما ارى ان « المعرفة » في الشق الاول من هذا الدعاء تختلف عن « المعرفة »
في الشق الثاني منه . وبعبارة اوضح، يخيل لي انه قصد بالمعرفة الاولى
عكس معناها، اي الانكار ! .. فكأنه قال « اغفر لي عدم معرفتي اياك بما
خلا من اعوام عمري » . وهو يتنصل ضمنا من التبعة، ويلقيها على عجزه
عن الادراك . وقوله « على مبلغ امكاني » يؤيد هذا التفسير . ثم جاءت
المعرفة الحق في الشق الثاني من قائلته ، وهي التي يتخذها وسيلته الى
الله لغفران الماضي وثواب الحاضر ، بل المستقبل .
كان الحاده عقليا ، وجاء ايمانه عقليا ولا بد .

عبد الحق فاضل

